الغرباء

بقلم : نجيب كيلاني

حدث ذلك منذ عشرين عاما ..

كانت مدرستنا الابتدائية في قريه تبعد عن قريتنا مايقرب من خمسة كيلو مترات ، نقطعها ذهابا وايابا كل يوم سيرا على الاقدام ، كان هذا مرهقا الى حد بعيد ، لكن كثرة عددنا ، وتعودنا على ذلك السير اليومي ، وشعورنا بأننا محظوظون لحصولنا على فرصة التعليم ، كل ذلك خفف من ارهاقنا وآلامنا .. ثم ان لكل شيء نهاية .. وسيأتي يوم ننال فيه الشهادة الابتدائية ، ثم نستقر في المدينة ، ونودع أيام التعب والشقاء .. وفجأة اصدرت المدرسة قرارا بأن نقيم في القرية التي بها المدرسة حتى يتيسر لنا الوقت الكافي للمذاكرة ، ولتوفر علينا مشاق الطريق واستقر بنا المقام في حجرة شبه مظلمة بمنزل متواضع جدا وباجر زهيد لا يكلف الواحد منا أكثر من ثلاثة قروش في الشهر فقد كنا سبعة تلامذة ، نتراص متجاورين كل مساء على حصيرة واسعة ، تغطي أرض الحجرة الطينية . ولم يكن يزعجنا في مسكننا الجديد سوى مرور مدرس الحساب في أوقات مختلفة ..

كان الرجل قاسيا غاية القسوة .. وكان يهبط علينا كهادم اللذات ، ونحن نسمر في الماء ، أو نحكي ذكرياتنا ، كي نقطع رحلة ليل الشتاء الطويل ، وفي آلام الغربة ، في تلك السن المبكرة اذ كانت أعمارنا تتراوح بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة .. وكثيرا ما نجد باب الغرفة يفتح فجأة ، ويطل منه وجه «النصيف أفندي» مدرس الحساب . وفي يده خيزرانه ملساء ثقيله يعرفها الجميع ، وعلى عينيه منظار زجاجي شفاف ، تتسرب من خلاله نظرات صارمة تزرع في قلوبنا الغصة رغما عنا ، ولم يكن يفتح الباب الا بعد أن ينصت الى حديثنا الفارغ بضع دقائق كالجاسوس .. وعندما نصطدم بمرآه نهتز . نقف ادلاء في أركان الحجرة ، حاقدين الرءوس ، تتراقص على وجوهنا الشاحبة الصامتة أضواء المصباح الغازي المتهافتة . ونظل منظرين ، وقلوبنا تدق ، وكل واحد منا يستعيد ماقاله في الدقائق الفائتة .. هل تفوه بكلمات خارجة ؟ هل سخر من بعض مدرسي

المدرسة مثلا ؟؟ هل ورد على لسانه اسم فتاة ؟؟ كلها جرائم ذات عقاب صارم ، ولاشيجة وراءها سوى العذاب النفسي الرهيب ... وهكذا كانت صورة «نصيف» افندي مقترنة في اذهاننا بصورة الجلاد الذي لايرحم ، على الرغم من ان قسوته تلك كانت تجد لها قبولا حسنا ، ورضاء تاما لدى اولياء امورنا ..

كانت حياتنا في القرية حياة فقيرة ، وتقاسي من سوء التغذية ، ومن الخوف من نصيف افندي وتصعد حنان الأمهات والآباء ... وتتلهف على يومي الخميس والجمعة كي نعود الى قريتنا لنأكل ونلقى الامل ونشعر بالامن والسعادة المؤقتة .. ولم يكن يشبه هذين اليومين سوى الفترة التي يسافر فيها نصيف افندي الى الصعيد بعيدا عنا .. ليزور اهله ، ويحضر معه كميات من السمن والعسل والدقيق .. كنا نعرف ذلك ، ونعرف انه لن يعود الى المدرسة الابتدائية الاهلية قبل اسبوع على الأقل ، وخلال هذا الاسبوع نتصرف كسكارى تحللوا من كل قيود ، او كمجانين لاعقل لهم ، نغني ونرقص ، ونقضي لياليا في المرح والحكايات والذكريات الشجية ، ونمتص عيدان القصب ، ونتبادل الزيارات ، ونهرع الى شوارع القرية وازقتها نتعرض للمفتيات ، ونثير الشغب ، ولا نفتح كتابا ..

وهبط علينا نصيف افندي ذات مساء ، كما لعين الحظ تحلق حول (طلبة) ، جنية ، يتوسطها الصباح الغاري ، منهمكين في الاستذكار ، وكل منا مستغل بذكياء التي ترجمها عشرات الأعوام والآلام ، وعندما فتح الباب وبرز نصيف افندي — تغيرنا الصعداء وحمدنا الله .. انها احدى المرات النادرة التي لانضبط فيها متلبسين باللعب .. ومع ذلك فقد كانت قلوبنا تدق من خوف عاصف ، لكنه شيء ملازم لطبيعتنا ، وتفحصنا الرجل بنظراته .. كنا نرتعش .. والصمت يريد الموقف رهبة .. ونظراتنا قاتمة كمجموعة من الغربان امام قط يرى مسوحش ، ولم نصدق آذاننا حينما سمعنا نصيف افندي يقول باسما —

« ماذا تذاكرون ؟ »

— فانطلقنا في صوت واحد نقول

« الحساب ياسعادة البك »

« اعترضكم صعوبة ما .. »

« ابدا ابدا .. سهل جدا ياسعادة البك .. »

ثم خطا نصيف افندي داخل الحجرة والحيرة الملساء الثقيلة في بيته ، وعلى الرغم عنا كنا نتراجع ونحاول ان نختبيء في الحائط .. بل كنا نتمنى — برغم اطمئناننا المؤقت — ان ينبلعنا الأرض ، او ترسل السماء اي انسان يستدعي نصيف افندي لأي أمر من الأمور ، حتى ولو أتى واحد واخبره بان ابنه قد داسته عربة - لكنها مجرد امنيات طائرة لا تتحقق مطلقا .. فهاهو نصيف افندي يقف امامنا ويردد كلمات هبطت علينا كالصاعقة :

— « ياولاد .. انا مسبوط منكم جدا .. لسبب بسيط وهو ان انتم

مؤدبون ومجتهدون في دروسكم وأولاد ناس طيبين في نفس الوقت .. وفي بيتي حجرة خالية .. كنت أبحث عمن يسكنها ، وأنا لا أسمح لمواحد أي إنسان في بيتي للهم الا لنوع معين أري فيه صفات خاصة .. لهذا قررت أن أختار منكم أربعة فقط ليسكنوا عندي .. وراعت أبصارنا ، ودارت بنا الأرض ، كنا نرصد ونحن نعيدون عنه تفصلنا حواري وشوارع عدة ، وكان شبحه ملاحقنا في فريتنا في يوم الخميس والجمعة ، فيعد علينا يومنا وأحلامنا . فكيف نستطيع أن نعيش تحت سقف بيته ، وفي حجرة لا تبعد سوى خطوات عن حجرته ، وسمع صوته كل ساعة ، وكيف نفهم الدروس ونفهمها ، ونحن متأكدون أنه الى جوارنا ؟! أذن سنعيش في رعب قاتل مستمر ، ونقضي ليالينا بلا سمر ولا ذكريات ، ومستحيل أن تجلجل ضحكاتنا ، أو نستقبل زوارا لدينا .. ان قرار انتقالنا الى بيته معناه كارثة كبرى لا تعادلها كارثة على وجه الأرض ، هكذا تصورنا .

وانفرجت ثغورنا عن ابتسامات مبتلة لامعنى لها ، وحاولنا أن نبدي سعادتنا لهذا العطف السامي ، والتقدير الذي لم يخطر به أحد غيرنا ، وكأنما أخذتنا المفاجأة فأصابتنا البكم ولم نستطع أن نتكلم أو نعلق .

لم تجرب محادثته من قبل ، حتى مجرد كلمات الشكر والامتنان عجزنا عن التفوه بها ، لكن «نوفل» وهو أكبرنا سنا وجسما وصفاقة ، هتف بصوت مبتلع : « انه لشرف كبير يا سعادة البيه »

وسعل نصيف أندي وهز رأسه في رضا وكبرياء ثم قال :

ـ « انتم مثل أولادي وستكون «نوفل» أحد الأربعة ان شاء الله ـ انت ولد مؤدب »

وحال لون نوفل الى شحوب طاهر ، وأحنت عيوننا تتسلل اليه خفية ، رأينا نوفل يرتبك وتصدر عنه ضحكات هستيرية عصبية خفيفة وتمتم ..

ـ « ربنا يعلي مراتبك ياسعادة البك »

كان قلقنا يتزايد عليها ، وبدا « نوفل » في نظرنا أول الشهداء ، وشعرنا تجاهه بالأسى والعطف لقد تحدد مصير نوفل المسكين ، نرى من سيسقط بعده ؟ . ولم نستطرد في محاورتنا المرتبكة ، اذ هدر صوت نصيف أندي وقد اكتسى ملامحه بالجد والصرامة :

ـ « لكن يجب أن تفهموا أن أي خلال أو قلة أدب معناها الطرد من بيتي فورا »

« انتم جميعا تعرفون من أنا ، وكرامتي فوق الجميع .. والخارج عن النظام يستطيع أن أدفنه حيا »

وعاد الصمت الساحق الرهيب من جديد ، وغمرنا العرق برغم برودة الجو ، ولم نعد نسمع سوى شخرة أنفاسنا اللاهثة . وكان الحساس بريب يراودنا بأن إيادي عليه لا ترى تطبق على أعناقنا . وشرد نصيف رويدا رويدا حتى أوشكنا على مايشبه الاختناق ، ثم عاد نصيف أندي للحديث ثانية ، لكنه هذه المرة قد بعث بحديثه في نفوسنا قطرات من أمل وسعادة

ـ « سأسافر الى الصعيد غدا يا أولاد ـ وسأمكث هناك بضعة أيام ..
وبعد أن أعود سأنفذ ماوعدتكم به ..
واختياري لاربعة منكم أرجو ألا يغضب الباقين لو كان عندي متسع لأحدكم جميعا .. ومع ذلك فقد أعد لهم أيضا مكانا فيما بعد .. أعرف أنكم تتمنون أن تسكنوا عندي كلكم .. لكن ماحيلتي والمكان ضيق ؟؟ » .

واولاد تصيف افندي طهره وخرج ، وبقينا مسمرين كالتماثيل الحجرية ، واثر اللحظات العاصفة لم يزل يملأ قلوبنا ورءوسنا ، ويترنح نوفل ، ويتخلج شعاعه ، ثم تطهر الدموع من عينيه ، ويهمهم باكيا ويقول وهو يشهق :

ـ « ملعون ابو المدارس وايامها السوداء .. لعنوف اقتل نفسي .. الموت اهون .. وارميها على الحصير الباردة في اجهاد واسى ، وآمالنا في الخلاص تبدو قصيرة عاجزة عن أن تمس السحاب ، واليأس الشامل يلون نظرتنا للحياة والمستقبل ، ولا احد يستطيع ان يستشعر عذابنا سوى الله .. ونحن الذين نكتوى بنيران الخوف .. ومع مداق الحياة المرير الذي كنا نقص به الا اننا حاولنا ان نخفف من حدته ، وقليل الامر على علاته ، فليس في مقصورتنا أن نتمرد او نثور ، ولا يمكننا ان نصرح علانية باننا أحرار ونسكن في المكان الذي نريد ، ولو حدث وطالبنا بحريتنا لسيكون ذلك ضربا من الجنون قد يعرضنا لما هو اسد وأنكى ، وفي ليلة مطيره قارسة البرد ، كنا نتكمش في حجرتنا الرطبة بمص القصب ونتحدث في غير قليل من الاطمئنان .. فقد كان تصيف افندي في الصعيد ،

وكنا دون رقيب ، وخرج « نوفل » عن صمته واكتئابه ، ثم وثب الى بسطة السافده التي ترتفع من ارض الحجرة حوالي المتر ، وتناسى الى حين ما يضمره له المستقبل من أحزان قاتمة .. يستشعرها دائما أولئك الزارعون تحت وطأة الذل والقهر .. وأخذنا ننتقل من حديث الى حديث ، ونثب من بادره الى أخرى ، ولم ندر كيف دخلنا في موضوع النساء .. وكان هذا موضوعا يحبذه « نوفل » ويتحدث عنه في مهارة وحرارة .. أخذ يحدثنا عن « عوض الله » ابن بلدنا ذلك الرجل المفتون بماله وشبابه .. وكيف ان « عوض الله » أحب فتاة ليل في المدينة .. وباع بسببها مايقرب من عشرة أفدنة .. وأخذ يصور بدقة ماكان يحدث ..

« تصوروا يا أولاد » كانت عشيقته كالجنية الساحرة .. كانت شقراء ذات خدود حمراء كالورد .. وأنفها .. آه .. كبلح الشام .. وشفتاها المليطتان يكاد يتفجر منهما الدم .. لهما عبق من المرمر .. وصدر ناهد تبارك الخلاق فيما خلق .. حتى أقدامها الصغيرة المسمارية كانت تذهب بعقل « عوض الله » و « تسكره » وصوتها دو نبرات حنونة دافئة .. كل شيء فيها كان يغري بالاثم .. ويجلس معها عوض الله طول الليل دون خوف من أحد .. ويشربان الخمر ، ويأكلان الحمام والأرز والتفاح والموز ويعيشان عن الوجود .. » كانت قطرات المطر تتساقط في الخارج ، وصدى سقوطها على الأبواب والنوافذ والارض المتلئة بالبرك الصغيرة ، يتناهى الى أسماعنا واضحا عبر الصمت الممتد الذي لايزعزعه

سوى عرف الريح من أن لآخر ..
وموجات من الحرارة الطارئة تسري في أجسادنا النحيلة ، ومائدة الطعام العامرة بالخمر وبكل الأكلات الشهية تسيل لعابنا .. وقصة عوض الله وعتاه الليل ، والتحلل من كل القيود تسيطر على أذهاننا تمام السيطرة ، وتوفل يجلس عالياً في المائدة ، وكأنه فوق منصة ، وهو مستغرق كل الاستغراق في قصته المثيرة الشيقة .. وهتفت في استغراب :

ـ « لا شك أن الله سيدخلهما النار »

ورد توفل قائلاً :

ـ « هذا أكيد .. لكنها متعة ما بعدها متعة » .

ـ ولماذا لا يتزوجها مادام يعشقها إلى هذا الحد ، ومادامت جميلة على هذه الصورة .

ـ « بنات الليل لا يتزوجون .. »

ـ « عجيبة !! » .

وعاد توفل إلى الحديث من جديد ، وأخذ يحلق بنا في آفاق مذهلة تضطرم بالشهوة والعربدة والتحلل من كل قيد ، وأخذ يرعى ويزيد في وصف أمجادهما .. أمجادهما الملفوفة اللذة الليلي .. والتي .. وارداد حماس « توفل » فجرى سباقه وأخذ يضرب عليهما وينشر بيديه وحاجبيه ، وكلما آتى صناعة له ، وتعتمل في قلوبنا أحاسيس متباينة ، شرهنا التقزز تارة والرغبة تارة أخرى ، لكن الأكيد هو أننا نشتهي تجربة ، عوض الله ، في داخل نفوسنا ونعرض عنها لما وقر في أذهاننا من سلوك وتقاليد .. وأدرك «توفل» ما يضطرم في نفوسنا فقال :

ـ « كل الأغنياء يفعلون مثل عوض الله ، الباشاوات والوزراء والملك أيضاً كلهم يحبون مباهج الحياة » .

فاندفعت قائلاً :

ـ العيش لحظة ، وكثرة المال تفسد الأخلاق .

وتمتم توفل :

« ليس دائماً » .

ثم عاد إلى الحديث عن عوض الله وعن بنات الليل في المدينة وعن موائد الخمر والحمام والتفاح والورد ، والليل الساتر ، وحور العربدة والمجون ، والأفخاذ العارية والتأوهات وعالم الخطيئة والشياطين وانبعثت في جوف الليل قهقهة عالية .

وكأننا أحرس « توفل » فلم نعد نستطيع النطق بكلمة ، وتسمرنا في أماكننا مذعورين وأحسسنا إحساساً مؤلماً بالبرد والخوف ، وعاد صوت في الشارع يقول :

ـ « والله عال هذا يا توفل يا هنجوس »

وهتفت دون وعي :

ـ « نصيف أفندي » .

والقى توفل بجسده من المائدة ، وسقط على وجهه فوق أرض الحجرة ، ثم نهض في تثاقل والفزع يكاد يقتله ، ووضع سبابته في فمه ، وأخذ يعض عليها في ذعر وارتباك ، وتمتم :

ـ « يا للداهية الكبيرة ، ماذا أتى به من الصعيد في هذه الليلة المطيرة ؟ وكيف يمشي في الأوحال والبرد ؟

وضرب بصوته صدى خشب المائدة المتلقية بجبروته ضربات متتالية ، فارتعشت مفاصلنا ، وقال في صوت جاف صارم :

ـ « ناموا ياكلاب !! سأعرف كيف اربيكم غدا .. ياتربية الأرقة والحواري .. تتكلمون عن الصداقة والدعارة !! مصيبة ! لم يبق غير هذا .. ناموا ياكلاب .. ثم يا وفل يامجرم .. »

كان صدى خطواته وهو يخوض الأرجل في الخارج يلامس آذاننا كالصفعات القاسية التي تعودناها منه ، وران على قلوبنا هم ثقيل ، ليته دخل واشبعنا ضربا وصفعا كي نستريح . اما ننتظر الغد المجهول وأشباح الهول تعذبنا أكثر مما تعذبنا جبروته ..

وأغمضنا الى نهوضنا بعد كف صدى خطواته عن بلوغ آذاننا .. ووقف توفل بيننا حائرا .. لم يزل بعض على سماعته ، ووجهه كوجوه الموتى .. وصرخ فجأة في حدة :

ـ « لماذا تحاقون ؟؟ »

قال أحدنا في هدوء :

ـ « سل نفسك »

ـ « اسمعوا يا اولاد .. لماذا لا نهرب من المدرسة ، ونعود الى قريتنا نزرع الارض مع أهلينا .. في قريتنا الصغيرة لن يضربنا أحد .. ولن نشعر بالخوف ابدا .. سوف نشتغل ونزرع ونأكل وننام في اطمئنان .. »

كنا نرغم الخوف الذي بنا لا نقر « توفل » ـ وهو أكبرنا سنا ـ على آرائه ، مستحيل أن نعود الى القرية خائبين فاشلين ، بعد كل كدنا أعمالنا المضروبات والتضحيات والكآبة والبؤس الافرنجية .. ومستحيل أن نخيب آمالهم فينا .. وخاصة أنا سوف ينال شهادة الابتدائية بعد عام ، ويطلق سراحنا من قبضة بصيف أفندي .. وقرأ توفل في عيوننا عدم الموافقة على كلامه ، كان وضعه في الحقيقة يشبه وضعنا ، فلن يتركه أبوه يعود الى الحقل بل يريد ابنه موظفا كبيرا يلبس البدلة والطربوش ، ويزال مرتبا محددا آخر كل شهر .. اذن ليست هناك حيلة للخلاص الآن .. فطأطأ توفل راسه في واحد يبكي ..

ولم ينم توفل ليلتها . وفي الصباح المبكر .. هب من فراشه كالمجنون وقال بصوت باك راعش :

ـ « سوف ارمي نفسي في البحر .. »

ولم يعطنا فرصة للتفكير ، بل لبس حذاءه وبدلته وعزم على الرحيل قبل أن يدق الجرس ، ويأتي بصيف أفندي بجبروته ..

ـ « لكن الانتحار كفر يا توفل .. »

قلتها في رهبة ، فرد ثائرا :

ـ « سأذهب الى جهنم ولا أعيش مع بصيف افندي .. »

وتسللت حفية الى بصيف أفندي في بيته ، وأخبرته بما اعتزمه توفل ، فأتى الرجل مسرعا معي ، لكننا لم نجد توفل ، كان قد غادر المسكن الى النهر القريب ، فجرى الرجل صوب النهر ، كان يلهث من شدة التعب ، رشاش الطين والماء القذر تلتصق بحذائه وجوربه وسرواله .. وأخيرا بلغنا

توفل . وكان يقف على الساحل ، وحوله بعض الرملاء ، وعيناه محتقنتان من كثرة البكاء ، ووقعت عيناه على نصيف أفندى ، فاطلق عليه الرعب .. ماذا يفعل ؟؟ أيجرى هاربا ؟؟ سوف يلحق به ، أيتعذر ويعود الى المدرسة ؟؟ وهناك العذاب الأليم ..

وقذف توفل بنفسه فى الماء ، وصاح نصيف أفندى مرتاعا :

ـ امسكوه .. الولد سيغرق ..

وتجمهر عدد من الناس .. وجروا توفل حيا الى الشاطىء ، واحمله مسلا الى المدرسة ، وهو يكاد يموت من الخوف ، وفى عينيه نظرات جنون داهل ، وهمس نصيف افندى :

ـ « لماذا فعلت ذلك ؟؟ »

ولما لم يجب ، استأذن الناظر فى الانفراد به ، ثم ربت على كتفه فى رفق ، وابتسم له مداعبا وقال :

ـ « لا تخف .. لماذا فعلت ذلك ؟ »

ـ « ان نصيف افندى سيضربنى .. »

ـ « هل هذا كاف بأن يدفعك للانتحار ؟؟ »

ـ « اجل .. انى أعشقه .. اعشقه .. »

كانت المشكلة فى دهن توفل أكبر من الضرب ، كانت خليطا من الخوف ، والتشوق للانطلاق والحرية ، والخلاص من نظرات نصيف افندى الحديدية التى لا ترحم ، وأشياء كثيرة أخرى لا يستطيع التعبير عنها ، وقال الناظر :

ـ « نصيف افندى لا يبغى سوى مصلحتك ومستقبلك .. »

ـ « انه يكرهنى ويريد قتلى .. »

ـ « انت واهم .. »

ـ « ويريدنا أن نسكن معه فى بيت واحد .. تصور ياحضرة الناظر .. فى بيت واحد .. »

وابتسم الناظر وهمس :

ـ لا تقل هذا .. تستطيع ان تسكن فى المكان الذى تريده ، وثق انى سأتوسط لك عند نصيف افندى ولن يضربك أو يسكنك معه بعد ذلك ، مبسوط ، وانهمرت دموع توفل وهو يقول :

ـ « ربنا يطول عمرك ياسعادة البك لن أنتحر بعد ذلك .. »

ولم ندر ماذا حدث بين الناظر ونصيف افندى بعد ذلك ـ لكننا لم نعد نرى نصيف افندى يدهمنا فى المساء ، او يتلصص علينا حجرة ، او يلهب ظهورنا بحيزرانته الثقيلة ، لأنه كان قد صدر أمر بنقله الى مدرسة أخرى .

وعادت البسمة ترتسم حقيقة على شفاهنا ..

وشعرنا بطل ثقيل يزاح عن قلوبنا ..

ورجعنا الى السمر فى المساء والذكريات الشجية والحكايات المثيرة ..

وتنسمنا أريج الحرية الى حين .. لكن قرب الامتحان ، واشفاقنا من النتيجة التى ينتظرها أهلونا ، كانت بمثابة هم لا يزول ـ لانها مسئولية ـ مسئوليتنا نحن الصغار الذين تتركز فيهم أكبر الآمال ..